أمينـــــة مكتبـــــة البصرة

قصـة عراقيـــة في محبـة الكتاب

في ٢٧ تموز من عام ٢٠٠٣ نشرت جريدة النيويورك تايمز مقالة للصحفية شيلا ديفن ، تتحدث فيه عن عالية محمد باقر أمينة مكتبة البصرة التي أجتهدت هي وأقرباؤها وأصدقاؤها بنقل مجلدات المكتبة خلال أيام الحرب لكي تنقذ ما كان بإستطاعتها أنقاذه في تلك الأيام العصيبة حين كان يبدو فيها كل شيء مهدداً بالفناء. وقتها كانت وسائل الإعلام تنقل صور نهب وسرقة أماكن المعرفة وعلى شاشة التلفزيون كانت ترتسم مشاهد الحرائق المريبة وخصوصا تلك التي تلتهم الوثائق والكتب.

سعيد فرحان

أما أن تأتي أخبار عن أناس يخاطرون بحياتهم من أجل الحفاظ على التراث البشري، فذلك أمر لم يكن يخطر على بال. غير أن هذه المشاهد لم تجد لها مكانا في صورة متحركة أو ثابتة انما كانت تتسلل بخجل من خلال الراديو أو عبر الجريدة. الأذاعة السويسرية قدمت في تلك الأيام مقابلة مع شاب رقيق من أهالي مدينة الثورة، كان يتحدث بالفرنسية. وقد قام هو الآخر بانقاذ الآف المجلدات من مكتبة بغداد وخبأها في منازل معارفه وعندما سأله الصحفي عن سبب قيامه بهذا الفعل المخاطر فيه، أجابه الشاب: لأنني أحب الكتب أكثر من حياتي. الفيلسوف السويسري جان رومان علق على ذلك بقوله أن أبناء الحضارات القديمة لا يموتون لأنهم يحملون في طيات أرواحهم غير المرئية سر الوجود البشري. الفيلسوف نفسه كان قد وصف قبلها بأيام مشاهد نهب المتاحف والمكتبات ومؤسسات القضاء المدني بأنها "إهانة للبشرية". حكاية هذا الشاب المؤثرة لم تجد لها من يعيد كتابتها بالكلمات، غير أن حكاية عالية محمد باقر ألهمت أولا مارك الآن ستاماتي رسام الكاركتير في المجلة الرصينة" النيويورك تايمز بوك ريفيو" الذي حول القصة الى سيناريو من شريط الرسوم، يتطور فيه الحدث بشكل سريع ابتداء من اللحظة التي تحول فيها سطح المكتبة إلى ثكنة، عندما عمدت السلطة العسكرية إلى وضع ترسانتها فوق المدارس ودور العبادة والمكتبات والمتاحف، وحتى اللحظات التي ظلت فيها عالية بين كتبها تنتظر مجيء السلام. الكتاب ظهر تحت عنوان "مهمة عالية" وعنوانه الفرعي" إنقاذ كتب العراق"، صدر عن دار نشر كنوبف. وهو كتاب يتميز بروح داعبة واضحة تتسم بها أعمال هذا الفنان المرهف. التراجيديا البشرية تصبح بعد الصفحة الأولى تأملا لمادة الحياة بكل جوانبها حتى الضاحكة منها، حين يصبح من أولى واجبات الإنسان إنقاذ تراث البشرية.

مؤلفة كتب الأطفال الشهيرة جانيت ونتر حالما قرأت مقال الصحفية بدأت بنسج الحكاية ورسمها، حتى صنعت منها واحداً من أكثر كتب الأطفال تأثيرا. صدر الكتاب هذه السنة عن منشورات هاركورت للأطفال. وترجم من الأنكليزية إلى العديد من اللغات، صدر هذه الأيام بالفرنسية عن دار نشر غاليمار.

أستندت الكاتبة إلى القصة الحقيقية التي روتها الصحفية وأخذت تطعمها برؤيتها وتساؤلاتها، فهي تتساءل عن شر الحروب بالطبع، ولكنها تضع الكتاب في مركز تساؤلاتها. من أين تنشأ محبة الكتاب؟ ما هو دور الكتاب وماهي ضرورته؟ أنه مادة للتعرف على الكون ولكنه سلاح ذو قدرة فعالة، سلاح المعرفة. هل يستطيع الكتاب الاحتفاظ بضرورته عندما تصبح الحياة مهددة؟ غير ان القارئ يشعر في النهاية بأن أحترام الحياة ومحبتها ينبع من إتساع حدود المعرفة، من ثقل مادة الوعي بالوجود، فالكتاب هو المعين الأول للمعرفة ولأنه صنيع الذكاء البشري فهو العائق الوحيد أمام الأمية التي تحاول تدمير كنز المعرفة البشرية، هذه التساؤلات العميقة تبثها الكاتبة بين السطور بلا إدعاء ومن غير تكلف.

أمينة مكتبة البصرة عندما شعرت بدبيب الحرب، ورأت الأسلحة المضادة للطائرات تغزو سقف مكتبتها الأليفة، عمدت إلى طلب المساعدة من ممثل الحكومة، غير أنه رفض أن يساعدها في منحاها. أضطرت بعدها الى أن تعتمد على نفسها. أخذت تحمل عددا محدودا من الكتب كل مساء وتخبئه في بيتها. غير أن الحرب بدأت تدق على الأبواب بإلحاح. حينها أخذت عالية تستعين بأقربائها وعدد من أصدقائها. أخذوا يخبئون الكتب في مطعم قريب للمكتبة وفي بيوت أناس آخرين. أستطاعت عالية محمد باقر أن تنقذ ٣٠٠٠٠ مجلد. تبدأ الحرب وتحترق المكتبة، بينما تظل عالية ساهرة على مجلداتها وهي تنتظر مجيء السلام لكي تحلّ المعرفة مكان الظلام.

قامت جانيت ونتر برسم الكتاب بنفسها. رسومها ذات بعد واحد وهي رسوم رمزية أكثر منها توضيحية. فهي ملصوقة على خلفية يتغير لونها حسب مكان وزمان الحدث. فهي صفراء قبل الحرب، بنفسجية حين يعم العنف وتصبح زرقاء حين يدب الأمل ويرتسم على الأفق. الرسوم تشارك في رسم مراحل الحدث وتعبر لوحدها عن مسار آخر للقصة حتى تبدو وكأنها مستقلة عنها.

ننقل هنا مقابلة قصير مع الكاتبة، توضح فيها طريقة استلهامها القصة وكيفية تنفيذها.

- عندما قرأت مقالة شيلا ديفن في ٢٧ تموز ٢٠٠٣ بصدد عالية محمد باقرالتي أنقذت سبعين بالمئة من كتب المكتبة المركزية في البصرة، حوالي ٣٠٠٠٠ كتاب، كيف أثرت عليك هذه القصة شخصيا؟

- منحتني قصة عالية حسا ضروريا بالتفاؤل خلال الفترة المعتمة للحرب، مثلما في تعبير غرامشي " تشاؤم العقل وتفاؤل العزيمة". رغم الخراب الذي كان يحيطها وكونها إمرأة، تحدت عالية ظروفها وتصرفت بشجاعة حقة. هذا هو تفاؤل الروح البشرية في ظل ظروف لا بشرية.

- حدث مثل هذا جرى في بلد بعيد، بلد لم ترينه أبدا، كيف بدأت عملية الكتابة والرسم عنه؟

- عندما قرأت المقالة علقتها على الحائط بدبوس، وأخذت أهيئ ملفا عنها. لقد عرفت منذ البدء بأنني سأكتب كتابا عنها. وأردت أن أحافظ ما أستطعت على بساطة القصة. الأحداث التي ذكرتها الصحفية كانت وافية غير أن المشكلة كانت تتعلق بالرسوم. عندما يكون بمقدوري ان أسافر إلى الأماكن التي تدور فيها كتبي، لإمتلاك أحساس بالمكان ولإلتقاط تفاصيل أخرى. الأمر لم يكن ممكنا مع البصرة. وإذن فقد حاولت الأقتراب من الحدث من زوايا عدة. أستخدمت مجموعة الصور العائدة لمكتبة نيويورك العامة، وتفحصت صورا عديدة للعراق، وأغلبها كانت صور حرب. درست كتاب مصورين فوتغرافيين عن حروب العراق. رأيت معرضا للصور في المركز العالمي للفوتغراف في نيويورك، عرض أعمال مراسلي الحرب في العراق. ذهبت إلى معرض رسوم الأطفال في زمن الحرب، رسوم يعود تأريخها الى الحرب الأهلية الأسبانية وحتى اليوم. أن بساطة وقدرة الإختصار في رسوم هؤلاء الأطفال كانت مؤثرة. أخذت أسمع موسيقى من الشرق الأوسط عندما كنت أعمل. الموسيقى غالبا ما تعكس حساسية المكان، مثلما تعكسه الصور. كل ذلك، بالإضافة إلى الأخبار التي كنت أسمعها كل يوم، جعلتني أخوض في موضوعتي.

- في واحد من آخر رسوم الكتاب، تغمض عالية عينيها وتتخيل عصافير تطير فوق قارب يطوف في الأهوار، وتحتها نقرأ الجملة التالية: " كانت تنتظر نهاية الحرب، تنتظر وتحلم بالسلام". ما المعنى الذي يتلبسه السلام خلف هذه الصورة؟

- من بين جميع صور مجموعة المكتبة العامة في نيويورك، هنالك واحدة ظلت تلازمني، كانت صورة قديمة لرجل واقف في مشحوف يمر عبر غابة من القصب. ظلت الصورة ترمز لشيء سماوي من بين جميع صور جحيم الحرب. وقد استخدمتها بالسليقة كتعويض للسلام. عندما نشر الكتاب أندهشت لقراءة مقالة(من مراسلة النيويورك تايمز لشيلا ديفن أيضا)، أن صدام حسين كان قد جفف جميع القنوات. وإذن فأن رمزية الصورة سرعان ما أصبحت أكثر دفقا مما تصورتها.

- طيلة انشغالك بالكتاب كم مرة أتصلت بعالية؟

- لم أكن أملك أي أتصال بعالية.

- ماذا تريدين أن يتذكر الأطفال من هذا الكتاب؟

- أتمنى أن يمتلك الأطفال الأيمان بأن الشخص الفرد يمكن أن يكون خارقا. وأن يتذكروا شجاعة إمرأة وحيدة استطاعت أن تحافظ على ما كانت تراه مهما بالنسبة لها، خصوصا عندما يحاصرهم الشعور بالعجز مثلما يحصل لنا أحيانا.

- يحتاج كتاب الأطفال إلى سنتين أو ثلاث لكي يكتمل وينشر، ولكن كتابك هذا تحول من فكرة إلى كتاب في أقل من سنة، ما الذي جعل الأمر ممكنا؟

- الوقت الأعتيادي بالنسبة لي لكتابة ورسم كتاب هو فترة ستة إلى ثمانية أشهر. كتبت ورسمت "أمينة مكتبة البصرة" في فترة اربعة أشهر، ودار نشر هاركورت نشرته في زمن قياسي. لقد كانت قصة عالية حافزا لشعورنا بالعجالة، ذلك أن رعب الأحداث اليومية كان يدور حولنا. قصتها وضعت وجها بشريا على عمومية الحرب وأشعلت شمعة في الظلمة.

- لقد دمرت مكتبة البصرة وبقيت عالية تحلم بمكتبة جديدة. وقد قررت دار نشر هاركورت أن تخصص جزءا من ريع الكتاب للحساب الذي أعتمدته جمعية المكتبات الأميركية لإعادة بناء المكتبة المركزية في البصرة، كيف تشعرين بهذا الأثر لكتابك؟

- الناس في جميع الأمكنة شعروا بالرعب ازاء تدمير الكنوز الثقافية في العراق، وأنا أشعر برعشة حين أرى بأنني اساهم في إعادة بناء مكتبة عالية.

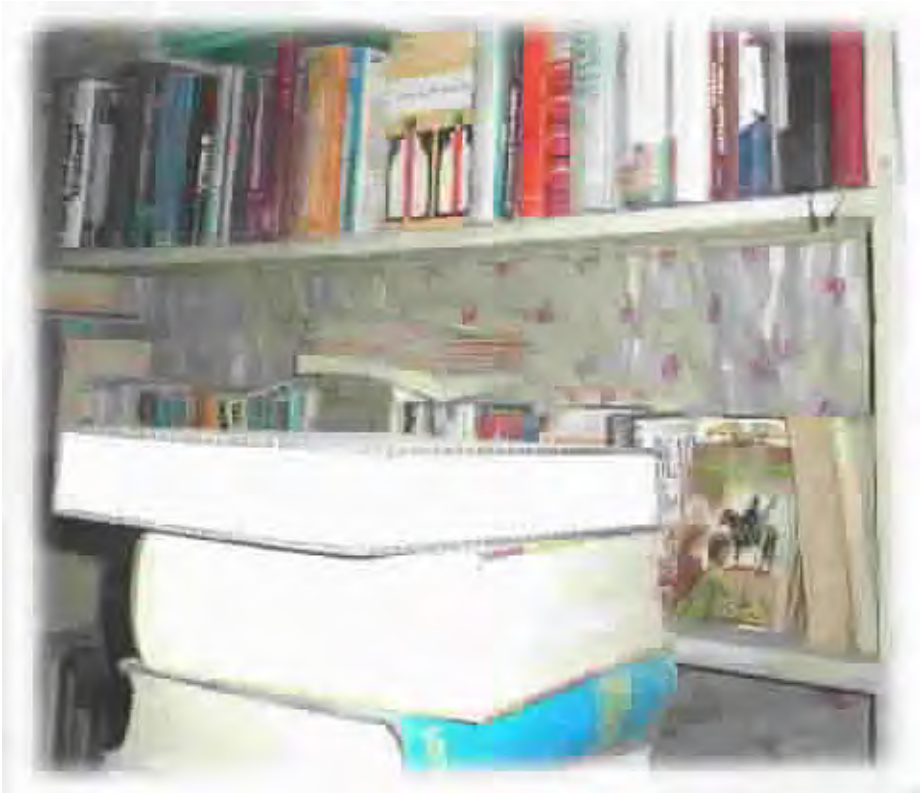

جهات بلا أثر

فرج الحطاب

ما لي أدعوك
فيفيض دمي. وينهش كَلَبٌ
اعرج
أستار بيتي.....
أناجيك
فتلتقط الغربان روحي
أناديك
فيدركني العويل.....
روحي برجائك نامية
فيقطفها
وأنت تراه.....
ناره بعظامي تشتعل
وأنت بالقرب ولا تغيث ...
الغوث
الغوث
حرائقي تنير ليل
الأبدية....
الغوث
الغوث
نجني من زفيره اللاهث
خلف دمي...
يا من علا في الخلق إحسانك
وشمل كل شيء
سلطانك.
افقيء عينيه قبل الصباح
لئلا يراني اصلي
فيتوضأ بدمي
ويسلبني التراتيل...
خلقتني من طين
وخلقته من نار
الغيث
الغيث
طوفانك عالق بالأمنيات
بصرخة الانبياء
بنواح امي
بالرصاص الذي باعنا
للكلاب..
كلاب تقتل.
كلاب تاكل
وكلاب تبحث عن الناجين
من هول الفجيعة...

شعَّت دماء أحبتي في ماء
دجلة
وتلألأ الضوء المقدس
فوق موج الزائرين..
نورك يدلني إليك
وناره تستعر.....
أصيح خذني
وناره تستعر....

مالي كلما قربت
من ملكوت نعمائك
شملني بناره.....

سقط اليقين
على قلوب أحبتي
وتهاوى السر
وسط الخائفين...
دماؤهم غسلت شوارعك
الحزينة

بلا نشيد
عابرون إلى قيامة التاريخ
بين رايات الكفر
ورايات الأيمان
ترفرف أجسادهم في هواء
لا يرفرف..
في فضاء يتشح بالجحيم..
منذ فجر بلا خيوط
ونحن نسبح.
بلا بياض
أو سواد.
ننسج ألوانا تشع
في جهات بلا اثر..

جفت دموع توسلي
وتصحرت انهار صبري
وتسلى الليل سهرانا بأهلي ..
ما لي كلما دعوتك
استطال خنجر قاتلي
وأدار نصله...
ما لي كلما أطوف إليك
يطوف بي...

رابضاً في دمي
يزاحمني الغريب
بلا حياء
دون قامة تستقيم
أو تاريخ يدلني إليه...

تاريخك عاطل
وتاريخي حياة...
حياتك موت
وموتي حياة..
بماذا ستقتلني أذن...

اريزونا
١٥-٩-٢٠٠٥

تسييس الإسلام، ظاهرة الإسلاميزم

كتاب للباحث الكردي شيركو كرمانج يصدر في السليمانية

عرض عبد الخالق كيطان

صدر حديثاً عن مؤسسة سردم للطباعة والنشر في السليمانية، كوردستان – العراق، كتاب للباحث الكوردي شيركو كرمانج بعنوان تسييس الإسلام؛ ظاهرة الإسلاميزم ووقع في خمسة فصول. في الفصل الأول، المقدمة، يحاول الباحث تعريف القارىء بأهمية الموضوع وتعريف بالمفاهيم الواردة فيه، خاصة وأن الباحث يقترح تسمية ظاهرة تسييس الإسلام بالإسلاميزم بدلاً من الإسلام السياسي كما هو متداول في الأدبيات التي قاربت هذا الموضوع، وكذلك تسمية الإرهاب الإسلامي بالإرهاب الإسلاموي، ويرجع الباحث اسباب ابدال تلك الأسماء للتفريق بين الدين الإسلامي وأولئك الذين يحاولون إستغلال الإسلام لأغراض سياسية. والفصل الثاني من البحث يمثل محاولة للإجابة عن سؤال، وهو، هل الإسلام دين سياسي أم تم تسييسه من خلال عملية سياسية-تاريخية-إقتصادية مر بها المسلمون في بدايات عصربلورة وتوسع الإسلام والتي ادت الى تشكيل الدولة الإسلامية؟وللإجابة عن هذا السؤال المهم يعتمد الباحث على المصادر الرئيسية للإسلام؛ القرآن الكريم، والسنة والفقة الإسلامي، وكذلك الأحداث التاريخية الرئيسة في عهد الرسول محمد (ص) وكذلك الأحداث والوقائع التى حدثت بعد وفاته.

أما الفصل الثالث من البحث فيعود الباحث فيه الى المفاهيم السياسية الرئيسة التى يعتمد عليها الإسلامويون لتسييس الإسلام، محاولاً صياغة استنتاج مفاده أن أكثرية تلك المفاهيم لا صلة لها بالإسلام وانما اقتبست اما من اصول قبائلية عربية، وهي تعود إلى أصول ما قبل الإسلام (Pre-Islamic Concepts).ويرجع بعضها الآخر الى اصول غير اسلامية (Non-Islamic Concepts)، ويجادل الباحث بأن تلك المفاهيم مقتبسة من اصول إيرانية أو بيزنطية، وقد دخلت الإسلام من خلال الإختلاط مع تلك الشعوب والإستفادة من خبراتهم لتمشية امور الدولة الإسلامية. وفي الفصل نفسه يتطرق الباحث الى أهم اسباب تسييس الإسلام في عصر صدر الإسلام.

بما ان اكثر الباحثين في مجال دراسة ظاهرة تسييس الإسلام يجادلون بان هذه الظاهرة ظاهرة جديدة في تاريخ المسلمين، ويؤكدون بانه رد فعل للحداثة والعولمة، ولكن الباحث شيركو كرمانج يخالف هذا الرأى مؤكداً على أن ظاهرة تسييس الإسلام او الإسلاميزم ترجع جذورها الى بدايات نشر الإسلام وبالأدق يوم وفاة الرسول (ص) والأحداث والنقاشات والمجادلات التى حصلت بين المسلمين بعد ذلك بصدد الخلافة. ويحاول الباحث من خلال المقارنة بين افكار واراء الفقهاء والعلماء المسلمين في العصور البدائية (الإسلامويون التقليديون) والفقهاء والعلماء في عصرنا هذا (الإسلامويون الجدد) ان يحدد مسار/خيط ربط بين الإسلامويين التقليديين والإسلامويين الجدد.

وبما ان هنالك جدلاً ساخناً في العالم العربي-الإسلامي عن مدى تناسق الإسلام كدين وكثقافة مع الديمقراطية، لذلك تم تخصيص الفصل الأخير للبحث عن العلاقة بين الإسلام والديموقراطية. ويجادل الباحث بأنه رغم عدم إمكانية إختراق الديمقراطية للعالم العربي-الإسلامي، ولكنه يتجنب لوم الإسلام وإنما يدعي بأن عدم مقدرة المثقفين العرب وعلى رأسهم الأسلامويون في الفهم الزمنى للنصوص القرانية هو الذي أدى الى ردع الديمقراطية وعدم افساح المجال امامها لترسيخ جذورها في البيئة العربية-الإسلامية بوجه خاص والشرق الأوسطية بوجه عام، وكذلك يتطرق الباحث الى الأسباب الأخرى في سياق البحث.

وفي الختام يقترح الباحث قراءة جديدة للنصوص الدينية وفهم تلك النصوص من خلال المفاهيم الواردة فيها وليست الكلمات والأحرف،أي الإبتعاد عن التفسير اوالترجمة الحرفية لتلك النصوص.

ومن الجدير بالذكر أن كتاب تسييس الإسلام يمثل بالأصل رسالة ماجستير كان الباحث كرمانج قد نال عنها الدرجة بامتياز حين مناقشتها في جامعة جنوب أستراليا حيث يقيم منذ سنوات، والكتاب هو نتاجه الأول في مجال النشر، كما أنه بدأ التحضيرات لنيل درجة الدكتوراه في العلوم السياسية أيضاً.